الأربعمائة بعد الألف ــ حدث عظيم في حياة الإسلام ، أن الصحابة رضي الله عنهم جعلوها مبدأ التأريخ ، فلم يؤرخوا بمولده ﷺ ، ولا بمبعثه ولا بغزوة بدر الكبرى التي سجلت أول انتصار للاسلام على الشرك ، ولا بفتح مكة الذي طهّر البيت الحرام من عبادة الأصنام ورجس الأوثان ، ورفع راية التوحيد على جزيرة العرب ، فأصبحت مناراً يهتدي به العالم في ظلمات الجهل والاشراك ، ولا بوفاته ﷺ .

إن كل هذه الأحداث تصلح لأن تكون مبدأ للتأريخ الإسلامي ، لولا ما يقترن بكل منها من معنى يتضاءل أمام ما أدت إليه الهجرة من نتائج لانتشار الدعوة .

فالميلاد وإن كان هو مبدأ انبثاق النور المحمدي ، إلاّ أنّه ربما صرف الناس إلى الاهتمام بذات الشخص ، والإسلام أتى حرباً على هذا الاهتمام ، فإنه قاد النصارى إلى تأليه المسيح عليه السلام .

والبعثة في الحقيقة أول مظهر تجلّت فيه عناية الله لهداية الخلق من جديد ، بعد أن انحرفوا عن الصراط المستقيم ، وما أتاهم به الرسل السابقون من شرع ودين . ولكن أثرها لم يظهر ظهوراً بيّناً ، ولم يتحقّق المراد منها إلا بعد الهجرة ، وقد ذاق المسلمون في أعقابها الأمرّين ، وهاجروا فراراً بدينهم إلى الحبشة ، وكانت الأعوام التي تلتها فترة امتحان شديد لهم ، وللنبي نفسه عليه الصلاة والسلام .

كذلك معركة بدر الكبرى وفتح مكة ، فإنهما معركتان هامّتان أدال الله عز وجل بهما للمسلمين من عدوّهم ، وأعقبهم نصراً وتمكيناً ، وإننا إذا نظرنا الى الأمر بعين الواقع ، نجد أنّهما ثمرتان من ثمار الهجرة وخيرها وبركتها .

أما وفاته ﷺ ، فلم يقل بها أحَد" .. لما ينال المسلمين من الحزن عليه ، وتجدّده عند كتابة التأريخ بهذه المناسبة المؤلمة .